رسالة العالم المسلم في الأمة

كما جسدها الشيخان العربي التبسي وإبراهيم اطفيش

أ.د. مسعود بن موسى فلوسي[1]

تمهيد:

مما هو معلوم من نصوص الكتاب والسنة؛ أن ديننا الحنيف رفع شأن العلم وأعلى قدر العلماء وجعلهم الأرفع منزلة بين الناس، قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة: 11]. واعتبرهم أزكى الناس، وأخشاهم لله، قال سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر: 28]. وما ذلك إلا لعلمهم بالحق ومعرفتهم بالحقائق الكبرى التي يأتي على رأسها وحدانية الله عز وجل، دليل ذلك أن الله عز وجل جعلهم شهودا على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته عز وجل وبشهادة ملائكته، قال سبحانه وتعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [آل عمران: 18]. فهم مميزون – بعلمهم – عن بقية الناس، قال الله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر: 9]. ولذلك أمر سبحانه وتعالى الناس بسؤال العلماء عما لا يعلمون من أمور دينهم ودنياهم، فقال عز وجل: (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [الأنبياء: 7]، وأمر بطاعتهم والعمل بإرشاداتهم وتوجيهاتهم، فقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم) [النساء: 59].

---

[1] أستاذ التعليم العالي كلية العلوم الإسلامية . جامعة باتنة1، الجزائر

تساؤلات بين يدي البحث:

لكننا ونحن نقرر هذا الأمر المعلوم والمتفق عليه، وبما أننا في مناسبة كريمة هي الاحتفاء بعالمين جليلين من العلماء الذين أنجبهم وطننا العزيز، تتبادر إلى الأذهان جملة من التساؤلات، منها: من هو العالم الذي تشير إليه النصوص السالفة الذكر؟ وما صفاته؟ وهل توفرت هذه الصفات في الشيخين العربي التبسي وإبراهيم اطفيش؟ وما هي الواجبات المنوطة بالعالم المسلم والمندرجة ضمن الرسالة التي هو مكلف بتبليغها وأدائها كأمانة منوطة بعنقه تجاه دينه وأمته ووطنه؟ وهل قام كل من الشيخين بتلك الواجبات أو ببعضها باعتباره عالما ينتمي إلى أمة بوأها الله مكانة الشهادة على غيرها من الأمم والشعوب في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143]؟

مفهوم العالِم وصفاته:

العالِم المسلم – فيما أفهم – هو من عَرَف ربه وخَشِيَه، وعرف نفسه وزكاها، وفقِه دينه من خلال كتاب ربه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتحقق لديه الوعي بواقع مجتمعه وواقع أمته، وعَرَف واجباته تجاه ربه ودينه وأمته ووطنه، وعمِل بما عرف وقام بأداء تلك الواجبات على قدر استطاعته.

يتبين من هذا التحديد للعالم المسلم، أنه لكي تتحقق صفة العالم المسلم في شخص ما لابد أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات:

الصفة الأولى: أن تتمثل فيه حقيقة العلم من المعرفة والإدراك والفهم العميق للدين وللحياة وللواقع القائم.

الصفة الثانية: خشية ربه سراً وعلانية، وإصلاح ظاهره وباطنه.

الصفة الثالثة: العمل بعلمه على قدر استطاعته، مع الزهد في الدنيا وابتغاء الدار الآخرة.

الصفة الرابعة: الدعوة إلى الحق الذي يحمله وإلى العلم الذي يعرفه.

الصفة الخامسة: مواجهة الانحرافات والمفاسد في المجتمع بعزيمة الصادقين وتحمل المتقين.

الصفة السادسة: التحلي بروح الاحتساب والإخلاص لوجه الله عز وجل، والشجاعة في قول الحق ونصرته والدفاع عنه.

الصفة السابعة: الاستعداد لتحمل الأذى والتضحية بكل ما يملك من نفس ومال وجاه، في سبيل الله.

يقول الشيخ العربي التبسي رحمه الله في خطاب ألقاه على مسامع إخوانه من أعضاء الجمعية، مبرزا ما يجب أن يتحلى به العالم المسلم الجزائري من خصال حتى يتمكن من أداء واجبه وتحقيق أهدافه، ومؤكدا صفات العالم التي ذكرناها: "يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس، وقبل أن يحاسبنا الناس. يجب علينا أن نكون أشداء على أنفسنا حتى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم، وأن نبلغه سليما لأبنائنا من بعدنا. يجب علينا – ونحن حاملو راية الدين والقرآن – أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هجروا الأوطان والصحب والخلان، وتركوا باريس ولندن ولاهاي وغيرها، يجوبون أقطار الأرض للقيام بدعوتهم، تاركين الدنيا وراء ظهورهم... إنه لا يمكن إرضاء الإسلام والوطن وإرضاء الزوج والأبناء في وقت واحد، إنه لا يمكن لإنسان أن يؤدي واجبه التام إلا بالتضحية"[1].

مدى تحقق صفات العالم المسلم في الشيخين التبسي واطفيش:

إننا حين نتأمل سيرة ومسيرة كل من الشيخين العربي التبسي وأبي إسحاق إبراهيم اطفيش عليهما رحمة الله، نجد أن كلا منهما قد تمثل حقيقة العالم المسلم التي بيناها، وتحلى بصفات

---

[1] . جريدة البصائر، ع 204، 1 صفر 1372هـ/ 20 أكتوبر 1952م.

العلماء الربانيين الراسخين التي ذكرناها. وهذا ما يمكن أن ندرك بعضه من خلال عرض موجز لحياة كل منهما:

أ – الشيخ العربي التبسي:

فالشيخ العربي بن بلقاسم التبسي[1] ولد في قرية أسطح من ضواحي مدينة تبسة سنة 1312هـ/ 1895م، وبمجرد أن بلغ سن التعلم ألحقه والده بكتاب القرية أين حفظ طرفا من كتاب الله وتعلم القراءة والكتابة. وفي السنة الثانية عشرة من عمره انتقل إلى خنقة سيدي ناجي أين استكمل في زاويتها حفظ القرآن الكريم. وعندما بلغ سنه الخامسة عشرة قصد مدينة نفطة في تونس ملتحقا بزاوية الشيخ مصطفى بن عزوز التي تلقى فيها دروسا في اللغة العربية ومبادئ العلوم الشرعية، كما قرأ عددا من الكتب التي كانت تحتوي عليها مكتبة الزواية. انتظم بعد ذلك في صفوف طلبة جامعة الزيتونة حتى حصل منها على شهادة التطويع (الأهلية) وأتم سني شهادة التحصيل. لكن، ولأنه كان تواقا إلى الاستزادة من العلم، شد الرحال إلى القاهرة سنة 1339هـ/ 1920م، قبل التقدم لامتحان الحصول على الشهادة، وفي القاهرة التحق بالجامع الأزهر أين ظل سبع سنين ينهل من منابع العلم والمعرفة عن طريق مجالسة العلماء والاستماع إليهم، وكذا عن طريق المطالعة الواسعة في مصادر

---

(1) . حول سيرة الشيخ العربي التبسي رحمه الله، تُنظر المراجع التالية:

– أعلام الإصلاح في الجزائر، محمد علي دبوز، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م. ج1، الصفحات: 39-84. ج2، الصفحات: 11-71.

– نماذج للاقتداء، محمد الصالح الصديق، دار هومة، الجزائر، 2013، الصفحات: 127-169.

– رواد النهضة والتجديد في الجزائر، عبد الكريم بوالصفصاف، دار الهدى، عين مليلة، ط2، 1428هـ/ 2007م، الصفحات: 69-96.

– إمام المجاهدين الشهيد الشيخ العربي التبسي، بشير كاشة الفرحي، دار الآفاق، الجزائر، 2004م.

– الشيخ العربي التبسي، أحمد عيساوي، دار البلاغ، الجزائر، ط1، جزءان.

– الشيخ العربي التبسي وأصول دعوته الإصلاحية السلفية، محمد حاج عيسى الجزائري، نشر: المؤلف، الجزائر، ط1، 1430هـ/ 2009م.

– الشيخ العربي التبسي الرئيس الثالث لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خالد أقيس، دار الألمعية، الجزائر، ط1، 2011م.

العلم والمعرفة التي كانت متوفرة على مستوى مكتبة الأزهر، متحملا في سبيل تحصيل العلم أقسى صنوف العسر الشديد وشظف العيش. وبعد أن حصل على شهادة العالِمِية من الأزهر الشريف سنة 1927 عاد إلى الجزائر، وقبل وصوله إليها مر بتونس أين أجرى امتحان شهادة التحصيل ونجح فيه.

وصل الشيخ العربي التبسي إلى وطنه الجزائر في السنة نفسها، وكله عزم وتصميم على العمل من أجل تنوير أهل بلده بالعلم النافع وإرشادهم إلى العمل الصالح والإسهام في تحرير وطنه من ربقة المستدمر الغاشم، وسرعان ما سعى إلى ربط صلات وثيقة مع الإمام عبدالحميد بن باديس الذي كان قد شرع في عمل إصلاحي في مدينة قسنطينة عماده التربية والتعليم منذ سنة 1913، واتفق معه على العمل على إصلاح المجتمع الجزائري بتصحيح العقيدة وتربية الناشئة والعودة بالأمة إلى دينها الصحيح.

استقر الشيخ العربي في مدينة تبسة وبدأ فيها إلقاء دروس التعليم والتربية للصغار والوعظ والإرشاد للكبار في مسجد ابن سعيد، إلا أن الحاكم الفرنسي للمدينة لم يلبث أن أمر بمنعه من النشاط المسجدي، بعد أن رأى إقبال الناس عليه وحرصهم على الاجتماع حوله والاستماع إلى توجيهاته وظهور تأثيره عليهم، ولذلك انتقل الشيخ العربي . بإشارة من الإمام ابن باديس . إلى مدينة سيق في الغرب الجزائري، والتي وجد من أهلها – هي الأخرى – إقبالا على دروسه ومواعظه وتوجيهاته، ورأى من ناشئتها حرصا على التعلم منه والنهل من معينه الثر الغزير. لكنه بعد أقل من سنتين، عاد مرة أخرى إلى تبسة أين افتتح مدرسة وأسس مسجدا وشرع في التعليم والتوجيه من جديد سنة 1930.

وعندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، كان ممن حضر اجتماعها التأسيسي، ثم أصبح من أعضاء مكتبها الإداري بصفته أمينا عاما للجمعية، وكان له نشاط حثيث في خدمة مبادئها وإنجاح مساعيها، إضافة إلى نشاطه الأصلي على مستوى التعليم والتوجيه الذي كان ينهض به في مدينة تبسة. لكن هذا النشاط وذاك لم يكن ليخفى على عيون الاستدمار وعملائه،

لذلك لم يلبث أن لفقت له تهمة زُج بسببها في السجن الذي لبث فيه ستة أشهر سنة 1943. وبمجرد خروجه عاد إلى نشاطه من جديد، لكنه بعد مدة قليلة وجد نفسه معتقلا ومسجونا مرة أخرى على إثر أحداث 8 ماي 1945 هو وعدد كبير من الوطنيين الجزائريين وعلى رأسهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله.

بعد خروج الشيخ العربي وإخوانه من السجن، عاد إلى نشاطه في التعليم واستمر في إدارة مدرسة تهذيب البنين في تبسة، التي ظل مديرا لها منذ تأسيسها سنة 1934.

في سنة 1947 افتتحت جمعية العلماء معهد ابن باديس في قسنطينة، وأسندت إلى الشيخ العربي مهمة إدارته، وكان مما قاله يوم افتتاح المعهد في كلمة ألقاها على مسامع المشايخ والمعلمين الذين عينوا للتدريس فيه: "أيها الإخوان، إن التعليم بوطنكم هذا في أمتكم هذه ميدان تضحية وجهاد، لا مسرح راحة ونعيم، فلنكن جنود العلم في هذه السنة الأولى ولنسكن في المعهد كأبنائنا الطلبة، ولنعش عيشهم، عيش الاغتراب عن الأهل، فانسوا الأهل والعشيرة ولا تزوروهم إلا لماما، أنا أضيقكم ذرعا بالعيال وعدم وجود الكافي، ومع ذلك فها أنا فاعل فافعلوا وها أنا ذا بادئ فاتبعوا". وقد قام التبسي بمهمة إدارة المعهد خير قيام، وظل حريصا على النهوض بها مدة عشر سنين كاملة، محتسبا أجره وثوابه والمقابل على عمله عند الله عز وجلا، رافضا أن يتقاضى أي مقابل مادي عنه رغم أنه لم يكن يملك شيئا من متاع الدنيا، وهذا ما أكده الإمام الإبراهيمي حين قال: "أما هو [أي الشيخ العربي] فلم يزل مصرا على التبرع بأعماله خالصة لله وللعلم".

هذه المهمة الشاقة المتمثلة في إدارة المعهد والتدريس فيه، أضيفت إليها مهمة أشق وهي رئاسة جمعية العلماء بالنيابة على إثر رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي سنة (1371هـ/ 1952م)، وهي المسؤولية التي لم يتوانَ في النهوض بها وإيفائها حقها دون أن يطلب على ذلك مكافأة أو يسأل أحدا غير الله جزاء ولا شكورا. وعند اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 كان الشيخ العربي من أوائل المسارعين إلى دعمها والترويج لها والحث على المشاركة فيها. وقد ظل يرعى الجمعية ويدير معهد ابن باديس ويشارك في دعم الثورة التحريرية. وبعد أن أغلق معهد ابن

باديس سنة 1956، انتقل إلى العاصمة لإدارة شؤون الجمعية فيها ورعاية ما تبقى من مدارسها ونواديها ومساجدها. وبعد استقراره في العاصمة استأنف درس التفسير في المسجد الكبير بحي بلكور.

ومع أن الظروف التي كانت عاشتها الجزائر في تلك الأثناء صعبة وعسيرة، وكان الاستعمار يستهدف العلماء المصلحين باعتبارهم أعداءه الألداء. ولذلك نصح بعض المخلصين الشيخ العربي بالخروج من الجزائر، إلا أنه أبى ورفض لأنه كان يعتقد أن الجهاد الأكبر إنما هو في البقاء داخل الجزائر وليس في الهروب منها، فبقي يقود الجماهير بدروسه ويرعى مدارس الجمعية بإدارته وتوجيهه، حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي قرر فيها الاستعمار أن يتخلص منه ويوقف نشاطه وحركته، فتم اعتقاله من بيته مساء يوم الخميس 4 رمضان 1376هـ، الموافق 4 أفريل 1957م، ثم تم إعدامه، لينال بذلك الشهادة في سبيل الله، ويحظى بشرَفَيْ العلم والاستشهاد.

لقد عاش الشيخ التبسي رحمه الله حياته كلها مخلصا للعلم عاملا به، شجاعا في قول الحق والدفاع عنه، مضحيا بكل ما يملك من مال وجهد، لتتكلل مسيرته بأن يدفع حياته ثمنا لما وهب له نفسه تضحية واحتسابا عند الله عز وجل. وقد شهد له بذلك عارفوه من إخوانه العلماء، قال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله: "الأستاذ العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومدير معهد عبدالحميد بن باديس، وصاحب الآثار الجليلة في العلم والإصلاح، والآراء السديدة في السياسة والاجتماع، والمواقف الجريئة في تمكين الإسلام والعروبة في القطر الجزائري... والأستاذ التبسي عالم عريق النسبة في الإصلاح، بعيد الغور في التفكير، سديد النظر في الحكم على الأشياء، عزوف الهمة عن المظاهر والسفاسف"[1]. وقال عنه أيضا: "مدير بارع ومرب كامل، خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم، وخرجه القرآن والسيرة النبوية في الدين الصحيح والأخلاق المتينة، وأعانه ذكاؤه وألمعيته على فهم النفوس، وأعانته عفته ونزاهته على التزام الصدق والتصلب في الحق وإن أغضب جميع الناس، وألزمته وطنيته الصادقة بالذوبان في الأمة

---

[1] . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 271-272.

والانقطاع لخدمتها بأنفع الأعمال، وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ومقارعة الحجة بالحجة ومقارعة الاستعمار في جميع مظاهره"[1].

وقال الشيخ محمد علي دبوز رحمه الله: "كان الشيخ بورعه وغيرته المتناهية على الدين، وشدة تمسكه به في أعماله وأقواله، وتضحيته بنفسه وبعمره كله في سبيل الدين وإصلاح الأمة، وتخلقه بالأخلاق الإسلامية العالية، وزهده في الدنيا واحتقاره للمادة، كان بهذا السلوك الديني العظيم قدوة للناس يتأثرون بأعماله ويقْفون خطاه، وكان حماسه لدينه يفيض فيملأ قلوب الناس حوله وإن سكت ولم يتكلم. إن وعظه ومعانيه كلها يراها الناس في نظراته وسحنة وجهه، وفي جلسته الوقورة المتأهبة، وفي حركته، وتجعلهم فطرة المشاركة الوجدانية التي طبع الله عليها كل إنسان يشعرون بوجدانِه فيكون وجدانَهم وإن ظل ساكتا لا يتكلم"[2].

وقال الشيخ محمد الصالح الصديق ملخصا حياة الشيخ العربي التبسي رحمه الله: "إن الشهيد الشيخ العربي رجل علم ومعرفة، رجل عرف قيمة الوقت فاستغله وأخصبه بالعمل الجاد المثمر، وهو إلى ذلك راجح العقل، حصيف الرأي، بالغ العبارة، دقيق الإشارة، سريع البداهة، قوي الحجة، صادق الوطنية، شديد الكراهية للاستعمار، رافض لكل أساليبه التعسفية الغاشمة وسياسته القمعية القاهرة. وظل طوال حياته صلبا لا يلين، وقويا لا يضعف، وواقفا لا ينحني، حتى سقط شهيدا يعلن للورى أن العلم النافع والوطنية الصادقة والانتماء الإسلامي والوطني الصحيح، ما ينتهي بالإنسان إلى ما انتهى هو إليه"[3].

وقال الشيخ أحمد الرفاعي شرفي رحمه الله: "خلال الفترة الممتدة من العشرينات إلى استشهاده، عرف المجتمع الجزائري الإمام الشيخ العربي التبسي عالما من أبرز أعضاء جمعية العلماء علما وتقوى وشجاعة في الحق، وكاتبا قديرا أخرس وأخمل كل صنائع الطرقيين والاستعمار،

---

[1] . نفسه، ج2، ص 218.

[2] . أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص 35.

[3] . نماذج للاقتداء، ص 130.

ومربيا فاضلا أعد للجزائر العديد من الإطارات والمثقفين والقادة المتصفين بأحسن الأخلاق، وعرف فيه المجتمع الجزائري كذلك فقيها واعيا متمكنا دافع عن السنة وأحيى منها ما تيسر له، وكشف الكثير من البدع وبين أخطارها على الدين"[1].

ب – الشيخ إبراهيم اطفيش:

أما الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن امحمد اطفيش[2] فقد ولد ببلدة بني يزقن من قرى وادي ميزاب جنوب الجزائر سنة 1886م. وبعد أن أتم حفظ القرآن في الحادية عشرة من عمره، وأخذ مبادئ العلوم العربية والشرعية في بلدته على يد عمه الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الشهير بقطب الأئمة. انتقل سنة 1910 إلى الجزائر العاصمة أين تتلمذ على الشيخ عبد القادر المجاوي الذي كان في بداية القرن العشرين من أبرز العلماء المصلحين في الجزائر. وفي سنة 1917 توجه إلى تونس ضمن بعثة علمية، فالتحق بجامع الزيتونة، أين نهل من علم أساتذتها وشيوخها من أمثال الشيخ محمد بن يوسف الحنفي والشيخ محمد النخلي والعلامة محمد الطاهر بن عاشور. لكنه سرعان ما اجتذبته السياسة بأجوائها الحماسية الوطنية، فانخرط في حزب الدستور التونسي بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي وما لبث أن أصبح عضواً بارزاً فيه، وكان فيما بين 1917 و1923 همزة وصل بين الثعالبي بتونس وبين الأمير خالد في الجزائر. وقد عُرِفَ بكرهه الشديد للاستعمار الفرنسي الذي أقلقه نشاط اطفيش فأصدر قرارا بنفيه من الجزائر إلى تونس، ولكن لما استفحل نشاطه أكثر في تونس لم

---

[1] . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى، عين مليلة، 2011، ص 22.

[2] . حول سيرة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش رحمه الله، يُنظر:

– الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد صالح ناصر، جمعية التراث، القرارة، 1991م، طبع: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية.

– مشايخي كما عرفتهم، محمد صالح ناصر، دار ناصر، الجزائر، ط2، 1434هـ/ 2013م، الصفحات: 11-45.

تتردد السلطات الاستعمارية في إصدار قرار جديد بنفيه وإبعاده من تونس على أن يختار أي بلد يشاء، فاختار مصر التي وصلها في 7 رجب 1341هـ، الموافق 23 فبراير 1923م.

في القاهرة وجد إبراهيم اطفيش المجال واسعاً للعمل الوطني، فنشط في ميدان السياسة والفكر، وقام بأعمال جليلة في الصحافة، وتحقيق التراث، والتأليف، إلى جانب نشاطه الاجتماعي مع الجمعيات الخيرية ذات التوجه الإصلاحي الإسلامي. كما أصدر وترأس تحرير مجلة (المنهاج) ما بين عامي 1344هـ/1925م- 1349هـ/1930م، التي عرفت بتوجهها السياسي والاجتماعي القويين، فكانت تكشف مخططات الإنجليز والفرنسيين الاستيطانية في الحجاز والشام والمغرب العربي بأسلوب تحليلي عميق. وفي الميدان الديني والاجتماعي كانت تَرُدُّ على مقالات التغريبيين المعجبين بالمدنية الغربية، المشككين في ثراء الحضارة الإسلامية، وقدرتها على التطور. وهو ما كان سببا في منعها من دخول كثير من البلاد العربية والإسلامية. وما لبثت (المنهاج) بعد مضايقات سياسية، ومتاعب مالية أن توقفت، فأسند الشيخ أطفيش رخصة صدورها إلى زميله في الكفاح الوطني محب الدين الخطيب، وكان ذلك سنة 1931م. ثم أسس الشيخ اطفيش مع صديقه الشيخ محمد الخضر حسين جمعية (الهداية الإسلامية)، كما كان عضواً نشيطاً في جمعية (الشبان المسلمين) المصرية. وقد شارك بصورة فعالة في المؤتمر الإسلامي المنعقد بالقدس في رجب 1350هـ، الموافق ديسمبر 1931م.

وفي عام 1359هـ/1940م أسندت إليه وزارة الداخلية المصرية مهمة الإشراف على قسم التصحيح بدار الكتب المصرية. وكان - وهو بدار الكتب المصرية - مرجع الفتوى في العلوم الشرعية واللغوية، وعُرف بين زملائه بغزارة العلم، ودقة التحقيق، والإخلاص في العمل، كما اشتهر بينهم بقوة عارِضَتِه إذا حَاجَجَ، ورحابة صدره إذا نوقش، ورسوخ قدمه في مجالي الشريعة وعلوم اللغة إذا استُفتي أو استُشير.

قام في سنة 1947 برحلة إلى زنجبار، أين كانت له جولات ولقاءات بالمسلمين هناك، وكانت فرصة له لإلقاء المواعظ والدروس والمحاضرات في إطار الدعوة والإرشاد.

وفي نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين أصبح عضواً فعالاً في جمعية تعاون جاليات شمال إفريقية، وعضواً نشيطاً في مكتب إمامة عُمان بالقاهرة، إذ أسندت إليه سنة 1961م مهمة التعريف بقضية عُمان في المحافل الدولية، والجامعة العربية، وسافر من أجل ذلك إلى عُمان وإلى أمريكا ناطقاً رسمياً هيئة الأمم المتحدة.

وقد كان وجود أبي إسحاق في مصر مفيدا للقضية الجزائرية إفادة كبرى، حيث كان يتصدى لمؤامرات الاستدمار الفرنسي، ويقف بالمرصاد لسياساته الدنيئة، ويكشف ألاعيبه ومؤامراته وجرائمه، ولم يكن يكتفي بما يخطه قلمُه، بل كان يستنهض للكتابة أشهر الأقلام الوطنية المصرية.

وفي أخريات حياته اشتد عليه مَرَضٌ استدعى إجراء عملية جراحية عاجلة، غير أن القدر كان أسبق، فوافته منيته وانتقل إلى رحمة الله، وذلك سحر يوم الإثنين 20 شعبان 1385هـ/ 13 ديسمبر 1965م، ودفن في القاهرة.

لقد عُرف الشيخ أبو إسحاق بالورع العالي، حيث "كان شديد الوقوف في الحلال والحرام، لا يستهين ولا يستكين، ورعا تقيا شديد الاحتراز من الشبهات، ولا سيما في طعامه وشرابه"[1]. كما أنه كان شديد الصراحة، عنيف النقد، شديد التمسك بالسنة. وصفه الشيخ أحمد توفيق المدني رحمه الله فقال: "أما الشيخ إبراهيم اطفيش فقد كان رحمه الله عالما لا يُشق له غبار، وشخصية عالمية جديرة بالاحترام والاعتبار، ورث من جَده الكريم صيت العلم وفخامة المركز الاجتماعي، واكتسب بجِده وكفاحه المتواصل علما واسعا وأدبا رفيعا وثقافة عالية يُغْبَطُ عليها. وكان – رحمه الله – صارما في دينه ننتقد عليه شدته وقسوته في أمور الحلال والحرام، حتى إنه كان يُحرِّم كثيرا من المُحْدَثات لمجرد ظن أو شبهة. وكان محجاجا حاضر البديهة، قوي العارضة"[2].

---

(1) . مشايخي كما عرفتهم، محمد صالح ناصر، ص 42.

(2) . أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج1، ص156.

وقد لخص الأستاذ الدكتور محمد ناصر مسيرة حياة الشيخ إبراهيم اطفيش وما تميزت به من جهاد وكفاح، فقال: "هذا الرجل الذي نفاه الاستعمار من أجل وطنيته من مسقط رأسه وملعب صباه الجزائر إلى تونس، ولما أعياه أمر وطنيته وهو يجاهد في عناد بتونس نفاه منها، فاختار مصر مركزا لجهاده ومعقلا لمعركته التي كان النفي بداية حقيقية لها. وتعرض في سبيل رسالته تلك إلى سلسلة محكمة الحلقات من الأرزاء المتلاحقة، فلوحِق واضطُهِدَ من استعمار لا يرحم، وابتُلي بالاغتراب فقضى أكثر من نصف عمره بعيدا عن أهله ووطنه، وأدارت له الحياة ظهرها فعاش في إملاق وعُسْر، وأثقلت كاهله الواجبات التي اختار القيام بها طائعا مختارا، وضحَّى من أجلها براحته وهُدُوء باله، وتعرض للابتلاء في صحته وعمله ومشاريعه، فما كان ذلك إلا ليزيده إيمانا فوق إيمانه وثباتا إلى ثباته، ووقف أمام العواصف كلها شامخ الرأس ثابتَ الأركان.. إن حياة أبي إسحاق جديرة بالاعتبار والاقتداء يَجِدُ فيها القارئ نموذجا حيا لهؤلاء الرواد الإصلاحيين الذين حملوا عبء النهضة العربية الإسلامية – ما بين الحربين – على كواهلهم، وناضلوا بأقلامهم ومواقفهم وتصدوا لكل أعداء الإسلام وما أكثرهم، واستطاعوا بإيمانهم الراسخ أن يفضحوا أساليب الغزو الفكري التي كان يدسها الصليبيون مندسين خلف جيوشهم العسكرية والتبشيرية والاستشراقية والتغريبية"[1].

واجبات العالم المسلم ومدى نهوض الشيخين بها:

بعد أن تبين لنا مفهوم العالم ومكانته في الأمة المسلمة، ورأينا تحقق كل من الشيخين التبسي واطفيش بصفات العالم المسلم الصادق، نتساءل عن الواجبات المنوطة بالعلماء، والمندرجة ضمن رسالتهم في الأمة، والتي إذا قاموا بها استحقوا المكانة التي بوأهم الله إياها والمقام الذي رفعهم إليه، ومدى قيام الشيخين بهذه الواجبات.

1- الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ص: 9-10.

1- تعليم الأمة دينها من خلال كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم:

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة العالم وفضل من يعلم الناس دينهم، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[1]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)[2]. فتعليم الأمة دينها وإرشادها إلى العمل بأحكامه من أكبر واجبات العلماء المسلمين.

وفي المقابل حذر الشارع الحكيم العلماء من كتمان العلم، واعتبر الإعراض عن تعليم الناس دينهم وإخفاء حقائقه عنهم جريمة يستحق صاحبها اللعن والإبعاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160].

ذلك أن دين الأمة هو حياتُها، وعندما تنفصل عن دينها - جهلا أو إعراضا - تفقد سبب وجودها ومبرر حياتها، ويصبح وجودها مجرد وجود مادي وليس وجودا حقيقيا في الواقع. ولذلك جاءت الدعوة الربانية للمؤمنين للاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارها سبب الحياة

---

(1) . رواه أبو داود في سننه، كِتَاب الْعِلْمِ، بَاب الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، رقم 3159، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(2) . رواه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم 2685. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الحقيقية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24].

وقد نهض كل من الشيخين التبسي واطفيش بواجبهما في تعليم الأمة وتوجيهها وإرشادها، كل بحسب البيئة التي عاش فيها والظروف التي تهيأت له.

فالشيخ العربي مارس مهمة التعليم بصورة مباشرة من خلال تدريس الطلاب والإشراف على تعليمهم وتربية نفوسهم، كما مارس مهمة الوعظ والإرشاد في المساجد والنوادي، ومارس التعليم والإرشاد بصورة غير مباشرة من خلال الكتابة في صحف ومجلات جمعية العلماء.

فقد بدأ إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في مسجد ابن سعيد بمدينة تبسة، ثم انتقل منه إلى الجامع العتيق، وبعد منعه من قبل السلطات الاستعمارية من التدريس في هذا المسجد عاد إلى المسجد الأول، ثم لما تكاثر الناس على دروسه ولم يسعهم المسجد لضيق مساحته، نقل نشاطه إلى مكان أوسع. وكان من دأبه إلقاء درس في التفسير أو الحديث كل يوم بعد صلاة العشاء، حيث يختار آية قرآنية أو حديثا نبويا يناسب موضوعه، فيفسر الآية أو يشرح الحديث، مركزا على بيان حكمة الوحي ومعانيه، ومشيرا إلى الأمراض الاجتماعية وأسبابها وعواقبها الوخيمة وواجب الناس في تركها والبعد عنها، ومنقضا على بدع الطرقيين وفسادها وإفسادها، وشارحا فرائض الإسلام وما ينبغي من الالتزام بها. وقد ظل رحمه الله يفسر كتاب الله عز وجل لما كان في تبسة وبعد أن انتقل إلى قسنطينة حتى ختمه في العاصمة في أواخر سنة 1956م[1].

وإضافة إلى دروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمحاضرات في النوادي، كان الشيخ العربي التبسي يعلم التلاميذ والطلاب في مدرسة تهذيب البنين التي أنشأها بالتعاون مع بعض

---

[1] ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر، لمحمد علي دبوز، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ج2.
– الشيخ العربي التبسي وأصول دعوته الإصلاحية السلفية، محمد حاج عيسى، ص: 14-21.

المصلحين في تبسة، ثم في معهد ابن باديس الذي أنشأته الجمعية في قسنطينة وتولى هو إدارته مدة عشر سنين.

وقد انطلق الشيخ العربي رحمه الله في كل ذلك من شعوره بواجب العالم في التعليم والتوجيه وإصلاح المجتمع وانتشاله مما يتخبط فيه من انحرافات وضلالات، ومن خوفه من حساب الله وعقابه على التقصير في التعليم والإصلاح، وهو ما قرره في إحدى مقالاته بقوله: "إن مصلحة الإسلام اليوم، وحق الشعب على الطائفة العالمة، وواجب الإنسانية، تقضي على الطائفة المتعلمة أن تتقدم إلى الأمام لتؤدي وظيفتها، لأنها الطائفة التي تُعَدُّ ذات الحق في نشر الهداية الإسلامية، وهذه الفئة العالمة وإن كانت أقلية جدا مفرقة في نقط معينة في مدن القطر، هي أكثرية معنًى"[1].

وأما الشيخ اطفيش فلم تسمح له ظروفه بأن يتولى مهمة التعليم والتوجيه والإرشاد المباشر، إلا أنه لم يتردد في بث العلم الصحيح والفكر الإسلامي السليم والتوجيه السديد من خلال مقالاته التي كان يدبجها ومؤلفاته التي أعدها ونشرها، والموسوعات الإسلامية الرائدة التي أشرف على تحقيقها وتدقيق طباعتها، ومنها: الجامع لأحكام القرآن الشهير بتفسير القرطبي.

2- دعوة الأمة إلى النهوض والتجديد:

من مهمات العلماء العاملين المصلحين؛ أن يهتموا بتجديد ما بلي من فهم الأمة لدينها وأن يحيوا الفقه الصحيح لأحكام الإسلام وتعاليمه، ودعوة الأمة إلى العمل بها للنهوض من كبوتها والإقلاع عن أوضاع الهزيمة والخنوع والضعف التي تقع فيها بسبب بعدها عن دينها وإعراضها عن كتاب ربها عز وجل وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: (يبعث

. مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص128-129.

الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها)[1]، والمؤهل للتجديد لن يكون إلا عالما عاملا فقيها في أحكام الدين وشؤون الدنيا.

وقد كان الشيخان التبسي واطفيش من العلماء العاملين الذين جعلوا تجديد الأمة وإصلاح أوضاعها وإحياء علاقتها بدينها هدفا أساسا لجهودهم ونشاطهم وكفاحهم في الحياة.

فالشيخ العربي رحمه الله لاحظ أن الخلل الأكبر الذي أدى إلى انهيار الأمة وتراجع مكانتها وانحطاط أوضاعها وشيوع الجهل فيها وانحراف سلوك أبنائها؛ هو بعدها عن دينها وانقطاع صلتها بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم وسيطرة الخرافات والأباطيل والاعتقادات الفاسدة على عقول أبنائها. لذلك رأى أنه من الضروي للنهوض بالأمة من جديد العودة إلى هدي الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من ارتباط وثيق بهما وإصلاح واقع الأمة بهما. ولذلك سخر جهوده كلها في هذا الإطار؛ تعليما ووعظا وإرشادا وكتابة ونشاطا اجتماعيا وسياسيا.

"فالنهضة في نظره – شأنه شأن المصلحين عموما – ليست مجرد رأي في وضع، أو إشادة بتصور في قضية، وإنما هي: رؤية شاملة وعميقة للوضع الاجتماعي في واقعه واسبابه، وتصور سليم للبديل اللازم فكرا وأسلوبا، فعمل مباشر دائم لإنجاز كل ذلك هدما وبناء.. فبالنسبة للواقع الاجتماعي آنئذ لم يتصوره مجرد واقع احتلال، وإنما أدرك أنه واقع تخلف حضاري أولا وقبل كل شيء، وأن الاحتلال جاء نتيجة للسقوط الحضاري. وبالنسبة للعمل؛ نبذ الفردية وندد بها ودعا إلى العمل الجماعي. أما الهدف فهو استعادة الدور الحضاري للمجتمع الجزائري"[2].

وكذلك كان الحال بالنسبة للشيخ إبراهيم اطفيش، فقد كان من أهم القضايا التي سخر "نفسه للجهاد من أجلها؛ الدعوة إلى محاربة الجمود الفكري والتزمت الانطوائي والانكفاء على الذات والتعلق بالماضي والعيش في محيطه، ولم يكتف بمقاومة هذه السلبيات بمقالاته وخطبه ورسائله ومؤلفاته

---

(1) . رواه أبو داود في سننه، من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، بإسنادٍ صحيح.

(2) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، 2011، ص 19-20.

القيمة، وإنما نزل إلى الميدان يصارع أصحاب هذا الاتجاه بالحجة الشرعية الرصينة والمؤسسات العلمية؛ فالأولى خطة عاجلة توقف التيار وتكسر حدته، والثانية خطة آجلة بعيدة المدى لأنها تنشئ جيلا متعلما سلفي الفكر متفتحا على العصر وتطوراته"[1]. "إن النهضة الإسلامية في تصور أبي إسحاق ينبغي أن تبنى أساسا على العلم بمفهومه الواسع ليملك المسلمون وسائل الرقي والتقدم بأيديهم ويستخدموها من أجل مستقبل أفضل"[2].

3- حراسة الدين وحفظه والدفاع عنه في وجه المتألبين عليه:

العالِم المسلم خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووريثُه في القيام بواجب الدعوة إلى الله، وتعريف المسلمين بدينهم وحثهم على العمل به، وحراسة الشرع والدفاع عنه في وجه كل من يعمل على تشويهه أو تحريفه أو تأويل نصوصه بما لا يتفق مع مراد الشارع الحكيم ومقاصده. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ)[3].

وقد عاش الشيخان رحمهما الله في مرحلة شهد فيها الإسلام والمسلمون تألبا رهيبا ومحاصرة شديدة واضطهادا عنيفا وتشويها ممنهجا، وذلك للتمكين أكثر للاستدمار وإدامة وجوده في البلاد الإسلامية. وقد كانت الجزائر في تلك المرحلة ترزح تحت نير الاستدمار الفرنسي الغاشم، الذي حارب تعاليم الإسلام وجد واجتهد من أجل تشويهها وتجهيل الجزائريين بها.

---

(1) . الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ص: 85.

(2) . نفسه، ص: 87.

(3) . ذم الكلام وأهله لعبد الله الأنصاري، الْبَابُ التَّاسِعُ، بَابُ : إِنْكَارِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ مَا أَحْدَثَهُ... رقم: 666. وقد جاء مرسلا عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري في السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع أو أنه لا يبصر الفتيا، رقم: 20310.

وهو ما دفع علماء البلاد إلى النشاط الحثيث في سبيل حراسة الدين والدفاع عن تعاليمه، وقد تصدى كل من الشيخين التبسي واطفيش لما رآه واجبا عليه في هذا الإطار، فجرد كل منهما قلمه ولسانه للدفاع عن الإسلام وشرح تعاليمه ودفع الشبهات المثارة حولها.

من المواقف المشهودة للشيخ العربي التبسي، ما رواه أحد تلاميذه وهو الشيخ العيد مطروح للشيخ محمد علي دبوز رحمه الله، قال: "كان الحكام الفرنسيون في تبسة – كلما هموا بإقامة احتفال يدعون إليه الشعب – بعثوا إلى الشيخ العربي ليتكلم فيه فيستغلوه في أغراضهم، فلا يذهب إليهم، فتكرر هذا منه، فوصفوه للحكومة بأنه عدو لدود لفرنسا، فاستدعاه حاكم عسكري كبير فقاله له: لماذا استدعيناك مرارا لاحتفالاتنا فلم تأت؟ فذكر له مناسبات الاحتفالات، وكانوا قد أقاموا حفلة في الجامع العتيق في تبسة، حضرها موظفون فرنسيون وكثير من أذناب الاستعمار، فخطب في الجامع حكام فرنسيون. فأجابه الشيخ العربي: لقد استدعيتموني إلى الجامع الذي دخلتموه وخطبتم فيه، وهذا لا يجوز عندنا في الدين فليس لكم دخوله، إنني لا أحضر المعصية ولا أقرها. فاغتاظ الحاكم العسكري، فصاح في وجهه مهددا، وعيناه تشتعلان حقدا: إنك ضد فرنسا. فأجابه: أنا ضد الظلم والاستبداد، فإذا كانت فرنسا ظالمة فأنا ضدها. فقال الحاكم في غطرسة: تذكر أن فرنسا قوية تستطيع أن تفعل بك ما تريد. فأجابه الشيخ في شجاعة وهدوء: ومتى كان للجزائري حق عندكم؟ إنه كطرد بريدي توجهونه إلى حيث تريدون"[1].

وهناك موقف آخر رواه الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله لأحد تلاميذه؛ مفاده أنه استُدعي إلى مكتب مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة، وهو في الوقت نفسه المسؤول عن الشؤون الإسلامية، للحديث معه عن المطالب الإسلامية لجمعية العلماء بصفته رئيسا لها، واصطحب معه الإمام الشيخ العربي التبسي، وما إن شرع مدير الشؤون الأهلية في شرح وجهة النظر الفرنسية فيما ينبغي أن يقوم عليه الحل حتى بادره الإمام الشيخ العربي دون تردد بما معناه "أنت رجل مسيحي لا يجوز لك الحديث عن ديننا ولا عما ينبغي أن يكون عليه وضعه الإداري"

---

[1] . أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص 61.

فوجم الرجل واصفر وجهه وأنهى الاجتماع قائلا: "لم يبق بيننا وبينكم مجال للحديث". وقال الشيخ عبد الحميد بن باديس تعقيبا على هذا الموقف: "ما صدقتُ أننا خرجنا سالمين من دار الولاية العامة"[1].

وهناك موقف ثالث للشيخ اتخذه باسم الجمعية حين تولى رئاستها، حيث أرسل برقية شديدة اللهجة إلى رئيس مجلس الديانة بالمجلس الجزائري يستنكر فيها تدخل اللجنة في تعيين الموظفين الدينيين، مما جاء في هذه البرقية: "باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أرفع احتجاجا عنيفا ضد المحاولة التي قامت بها لجنة الديانة الإسلامية والتي ترمي إلى تعيين الموظفين الدينيين للمراكز الشاغرة، وذلك خلفا لقرار سابق... إن الحكم الإسلامي يقضي بأن كل صلاة تقع وراء أئمة يعينون بمثل هذه الصفة إنما هي صلاة باطلة، تضاف إلى الصلوات العديدة الباطلة الأخرى التي تقع وراء أئمة غير شرعيين، فهذه الحالة تزيد في خطورة الموقف الذي هو متوتر جدا، وتجعل كل اتفاق مستحيلا في المستقبل"[2].

كما كانت للشيخ التبسي رحمه الله مواقف مماثلة في مواجهة الطرقيين المنحرفين، كشفا لأضاليلهم، وتفنيدا لأقاويلهم، وردا لخزعبلاتهم، وفضحا لممارساتهم ومماألأتهم للاستعمار، من خلال مقالاته وخطبه ودروسه.

أما الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش فكانت له وقفات مشهودة في وجه حملات التشويه التي دأب على شنها المستشرقون على الإسلام وتعاليمه من خلال رميها بأشنع النعوت وأبشع الأوصاف ومحاولة إظهارها على أنها تعاليم عنصرية وهمجية تنطوي على رفض الآخر وتدعو إلى التعامل معه بقسوة وغلظة.

---

(1) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص11.

(2) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص424.

من ذلك ما كتبه في الرد على فرية انتشار الإسلام بالسيف، التي يروج لها المستشرقون المتعصبون بغرض تشويه الإسلام، حيث قال في مقال له: "إن خرافة السيف هذه التي يذكرها المتعصبون من النصارى بحدة وتحمس، ليس لها أصل في الحقيقة، لأن التعاليم التي جرى عليها الإسلام والحكمة العامة التي جاء بها القرآن دائرتان حول تعويد البشر على الإسلام والصلاح، والإسلام دين من السهل نشره، وقد أرشد محمد صلى الله عليه وسلم كل المسلمين إلى ضرورة السعي لهذه الغاية بتعليمه إياهم أن يعلموا غيرهم ما يعلمون، وهذه الهداية النبوية قد عملت في نشر الإسلام ما لا تعمله القوة السياسية والجيش"[1].

لقد وقف أبو إسحاق رحمه الله في وجه حملات المستشرقين الموتورين على الإسلام، انطلاقا من إدراكه أن هذه الحملات كانت تستهدف نشر التنصير والتغريب والإلحاد في بلاد المسلمين بعد صد هؤلاء المسلمين عن دينهم ودفعهم إلى التخلي عنه، كوسيلة من وسائل التمكين للاستعمار وتثبيت وجوده في بلاد المسلمين. فكان الشيخ اطفيش دائبا في كتابة المقالات فضحا لمخططات هؤلاء، وإطلاعا للمسلمين "على حقيقة ما يخفيه أولئك وراء المساعدات الاجتماعية والتعليم والتطبيب وما أشبهه"[2]. كما كان "من أكبر اهتمامات أبي إسحاق الوقوف أمام محاولات التغريب، هذه المحاولات التي عرفت في بداية النهضة عدة وسائل، ومنها الغزو الثقافي عن طريق المستشرقين وأبناء الإسلام أنفسهم، ومن هنا كان تشدده أمام كل مخالفة وانحراف يقصد منها الاستنقاص من قيم الإسلام عقيدة أو سلوكا"[3].

4- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الانحرافات العقدية والسلوكية:

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. هذه الفئة أجدر الناس بتكوينها والانتماء إليها

---

(1) . أورده الدكتور محمد ناصر في كتابه الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ص110.

(2) . الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد ناصر، ص: 106.

(3) . نفسه، ص: 108.

هم العلماء الذين يعرفون ما هو المنكر وكيف يجب النهي عنه، ويعرفون ما هو المعروف وكيف ينبغي الأمر به.

وقد كتب الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش مقالا في مجلته (المنهاج) بعنوان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، بين فيه معنى هذه الوظيفة وأهميتها وواجب العلماء في النهوض بها والمجالات التي تؤدى فيها، مما جاء في هذا المقال: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جندان من جنود الله، فمن نصرهما نصره الله، ولقد كان أوائلنا من أشد الناس تمسكا بهاتين القاعدتين، وكان الحق قائما بين العامة والخاصة، وفي النفوس إخلاص لا يقصد به إلا الله لا حب الشهرة. والأمر بالمعروف؛ حمل الناس على أن يعملوا بما عرفه الشرع الشريف أنه حق يثاب به المرء ويمدح عند الله، سواء كان واجبا أو مندوبا أو مباحا، بالتذكير والإرشاد والترغيب بالقول والفعل. والنهي عن المنكر؛ صرف النفوس عن كل نقيصة كبيرة أو صغيرة مما أنكر الشرع الشريف وذمه أو أوعد عليه، كذلك بالتذكير والوعظ والتنفير والترهيب. وهذا من واجبات المسلمين عامة، وأهل العلم خاصة من أوجب واجباتهم، في حلهم وترحالهم، وسرائهم وضرائهم، في السر والعلانية.. وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستقيم الدين وتتمكن الفضيلة من النفوس وتقوى على الأعمال الصالحة.. ويدخل في ذلك الأمر بالواجبات الحيوية التي تستدعيها المصالح الدنيوية ويقتضيها النظام الاجتماعي"[1].

ومما هو معلوم أن الاستدمار حين حل ببلاد المسلمين عمل على نشر الرذائل والمفاسد الاجتماعية في صفوف المسلمين، تمكينا لنفوذه وترويجا لأفكاره، وإضعافا لأجسادهم ونفوسهم ومنعا لهم من الوعي والنهوض. وهذا بالتوازي مع مشاريعه ومخططاته الرامية إلى صد المسلمين عن دينهم وتجهيلهم بتعاليمه وإبعادهم عن العمل بأحكامه.

وبما أن الشيخين من العلماء العارفين بواجبهم في هذ الإطار، فقد عمل كل منهما في مجاله وبيئته، على محاربة الرذائل ومحاصرة المفاسد، في إطار مقاومة الاستدمار ومخططاته وألاعيبه.

---

(1) . أورده الدكتور محمد ناصر في كتابه الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ص177.

فالشيخ العربي التبسي سليل أسرة اشتهرت "بالدين والورع والتقوى والشجاعة الخارقة، والصراحة التامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان"[1]. ولذلك لم يكن غريبا أن ينهض بواجبه في هذا الإطار، فقد حارب الآفات الاجتماعية التي كانت منتشرة في تبسة وحاصرها حصارا شديدا، واتصل بالمبتلين بها، ودعاهم إلى تركها والتوبة إلى الله عز وجل منها، وقد آتت جهوده أكلها، فتاب على يديه كثيرون منهم، بل يذكر الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله أنه "انضم تحت لواء الإصلاح حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر... كما انضم كثير من الذين يعيشون في كنف الاستعمار"[2].

أما الشيخ إبراهيم اطفيش فإن وقوفه في وجه الاستعمار ومحاربته لكل أشكال التعسف والظلم ودفاعه عن المظلومين والمضطهدين ووقوفه في وجه المعتدين الظالمين، كل ذلك يندرج ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

5- الوقوف في وجه الظلم والعدوان ومقاومة المعتدين:

وهذا هو المجال الرحب الذي أبلى فيه الشيخان بلاء حسنا، ولاقى كل منهما بسببه ما لاقى من اعتقال واضطهاد أو نفي وتشريد.

فالشيخ العربي التبسي عُرف بعدائه الشديد للاستعمار، وكان دائم الاستنكار لإجراءاته التعسفية في حق الجزائريين، خاصة عندما أصبح رئيسا لجمعية العلماء حيث صار يعلن بكل صراحة ووضوح عداءه لفرنسا الاستعمارية ورفضه لإجراءاتها في حق الجزائر والجزائريين، يقول في إحدى خطبه: "إخواني، إن لجمعيتكم في الدفاع عن الإسلام واللغة العربية مواقف مشهودة مشهورة،

- ذم الكلام وأهله لعبد الله الأنصاري، الْبَابُ التَّاسِعُ، بَابُ : إِنْكَارِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ مَا أَحْدَثَهُ... رقم: 666. وقد جاء مرسلا عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري في السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع أو أنه لا يبصر الفتيا، رقم: 20310.
- مذكرات شاهد للقرن، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الإعادة الرابعة للطبعة 4، 1427هـ، 2006م، ص: 262.

دافعت فيها الاستعمار عن مقدساتنا، وذادت فيها عن حياض شرفنا ذيادا يذكر ويسجل، وتباهي به جمعيتنا ساعات ذكر مواقف الشرف. إن تاريخنا حافل بالوقائع الكبيرة في محاربة الاستعمار ومحاولة إبعاده عن مساجدنا وشعائر ديننا وأوقاف أمتنا وحرية لغتنا، حاربنا بذلك الاستعمار الظالم بكل سلاح نملكه، حاربناه في الجزائر في كل مناسبة، وحاربناه في فرنسا، وحاربناه في الشرق، وحاربناه منفردين، وحاربناه متحالفين مع غيرنا في كل مناسبة، قضينا في هذه الحرب ربع قرن كامل، وتحملنا في هذه الحرب السجون، ودخلنا المعتقلات، وقبلنا الغرامات المالية، ورضينا بغضب الاستعمار علينا وبما يسومنا به من ظلمه وعسفه"[1].

ولذلك لم يكن غريبا أن يناصر الشيخ العربي التبسي الثورة التحريرية عند اندلاعها، وأن يحرض طلبته وأهل ثقته على الالتحاق بها، وأن تكون له اتصالات مستمرة مع قادتها ومجنديها، وأن ينشط في الترويج لها وحشد الدعم لها وجمع التبرعات لفائدتها، "وكان كثير من الناس لا يتبرعون بالمال للثورة إلا على يده لثقتهم به واستجابتهم لدعوته"[2].. وقد تعرض إلى محاولات كثيرة من السلطات الاستعمارية لابتزازه ودفعه إلى توجيه نداء إلى المجاهدين لإيقاف الثورة، لعلمهم بقوة تأثيره والاحترام الكبير الذي يحظى به لدى قادة الثورة، إلا أن هذه المحاولات لم تُجد معه ولم تأت بأية نتيجة لصالح الاستعمار.

فأثر "الإمام الشيخ العربي التبسي رحمه الله – شأنه شأن زملائه المصلحين – لم يقتصر على المجال الإسلامي أو الثقافي فحسب، وإنما امتد بقوة وعمق وشمولية إلى الميدان السياسي نفسه من خلال ... ما كشفه في مقالاته من مظالم الاستعمار وجرائمه، ومن خلال الدعوة إلى النهضة وإلى الاستشهاد، ومن خلال الدعوة إلى مقاومة الاستعمار دون تهيب أو تردد"[3]. و"لقد كان الإمام يعلم أنه سيُعتقل، وكان يعلم أن الاعتقال أثناء الثورة معناه التعذيب حتى الموت، وكان يعلم أنه صيد

---

(1) . أورده الأستاذ محمد علي دبوز في كتابه أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص 58..

(2) . أعلام الإصلاح في الجزائر، محمد علي دبوز، ج2، ص70.

(3) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص22.

ثمين بالنسبة للأعداء وهدف ضخم، ذلك أنه رفض كل إغراءاتهم وتهديدهم، وأذلهم بعزة المؤمن أكثر من مرة، وذلك ما كان يزيد من حقدهم ورغبتهم في الانتقام منه وإيذائه، ومع ذلك كله صمد حتى الموت، وكتب الله له الشهادة على الحق"[1].

وكذلك كان حال الشيخ إبراهيم اطفيش الذي لم يتحمل الاستدمارُ الفرنسي نشاطه المناهض له في تونس، فأرسل إليه من الجزائر يمنعه من دخول البلاد ويعتبره منفيا منها، ولم يتوقف عند ذلك، بل أصدر إليه الأمر من جديد بنفيه من تونس إلى أي بلد يختاره فاختار مصر. وما كان الاستدمار ليلجأ إلى هذا الإجراء لولا ما كان يقوم به الشيخ اطفيش من نشاط صريح العداء للاستدمار وواضح الرفض لوجوده في بلاد المسلمين، وفي بلدان المغرب العربي بالخصوص.

ومع أن الشيخ اطفيش لم يعش في الجزائر خلال مرحلة الثورة التحريرية، إلا أنه لم يدخر وسعا في مناصرة هذه الثورة ومساندتها والتعريف بها في الخارج وحشد الدعم العربي والإسلامي والدولي لها. فوجوده "في مصر أفاد القضية الجزائرية إفادة كبرى، فقد كان يقف لمؤامرات الاستعمار الفرنسي بالمرصاد كشفا وفضحا، لا يكتفي بما يكتبه هو بقلمه في مجلته المنهاج، بل كان يستنهض للكتابة أشهر الأقلام الوطنية المصرية، من أمثال احمد زكي باشا شيخ العروبة، وعبد الرحمن الرافعي، والشيخ رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، ومحمد علي الطاهر وغيرهم من الأعلام الذين كان لهم في ميدان الجهاد بالكلمة صيت وشهرة واسعة"[2].

6- الاهتمام بأمر المسلمين في كل مكان ونصرتهم والتعريف بقضاياهم:

فالعالِم المسلم لا يعنيه فقط بلده الذي يعيش فيه ووطنه الذي ولد فيه وينتسب إليه، وإنما وطنه هو الوطن الإسلامي كله وأهله هم المسلمون جميعا. ولذلك فاهتمامه بأوضاع الأوطان

---

(1) . نفسه، ص 45.

(2) . الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد ناصر، ص: 56.

الإسلامية الأخرى كاهتمامه ببلده، واهتمامه بشؤون إخوانه المسلمين في كل بقاع العالم كاهتمامه بشؤون إخوانه المسلمين من أهل وطنه.

فعلى الرغم مما كانت تعانيه الجزائر من ويلات الاستدمار في الفترة التي عاش فيها الشيخان، إلا أن هموم الجزائر وشعبها لم تنسهما هموم الأوطان الإسلامية الأخرى وشعوبها.

من ذلك الموقف الذي وقفه الشيخ العربي التبسي رحمه الله باعتباره رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قضية محاكمة رئيس وزراء إيران الأسبق محمد مصدق التي كانت من تدبير المخابرات الأمريكية والبريطانية ضده لما وقف ضد مصالحها، حيث أرسل الشيخ برقية بتوقيعه وباسم الجمعية إلى رئيس وزراء إيران حينئذ، يقول فيها: "إن علماء الأمة الجزائرية يستغربون وقوف الدكتور مصدق أمام المحاكمة، ويستنكرون الإجراءات التي اتخذت ضد هذا البطل الكبير الذي تحترمه الأمة الجزائرية قاطبة، وتصادق على مواقفه، وترجو إطلاق سراحه"[1].

وهذا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش تشغله قضية ضعف المسلمين وتخاذلهم أمام أعدائهم، ومخططات هؤلاء الأعداء الدائبة للاستيلاء على العالم الإسلامي والاستحواذ على ثرواته، فقد كان "الهم الكبير الذي شغل بال أبي إسحاق فأولاه اهتماما في كتاباته السياسية هو الكشف عن مخططات الاستعمار الأوروبي الرامية إلى السيطرة على مصير العالم الإسلامي عن طريق ما تنصبه من شراك الوقيعة والشنآن بين شعوبها، ذلك ما جعله يتابع عن قُرْبٍ تطورات السياسة الإنجليزية والفرنسية في تلك المناطق، فكان لا يغيب عن باله أبدا أن ينبه الحكام والساسة إلى هذه الجوانب ويرى ذلك جانبا من الجهاد الإسلامي الذي هو فرض واجب على كل مسلم. وبما أن العالم الإسلامي شهد بعد الحرب العالمية الأولى تنافسا قويا بين فرنسا وإنجلترا للاستيلاء على هذه الأقطار، فإنه خصص قسما خاصا للعالم الإسلامي في مجلته (المنهاج) يتابع من خلاله تطورات الأحداث في المناطق الإسلامية الحساسة أو الساخنة مثل الحجاز وفلسطين، ونراه في كل مرة

---

[1] . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص430.

يكشف عن الحيل السياسية التي يستخدمها الإنجليز وهم ماهرون فيها للاستيلاء على قلب العالم الإسلامي وقبلته عن طريق الانتداب والحماية والوصاية وما شابه من الأسماء التي تخفي كلها حقيقة واحدة وهي السيطرة على البلاد الإسلامية عن طريق السيطرة على القلب"[1].

7- السعي في تحقيق وحدة الأمة ومقاومة كل ما يفرقها ويشتتها:

يقول الحق سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]. ويقول عز وعلا: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 159]، ويقول عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

ولاشك أن أجدر الناس بالمحافظة على وحدة الأمة وحمايتها من التفرق والتشتت هم العلماء الذين يحظون بالاحترام والتقدير ويحظى كلامهم بالاستماع والاهتمام، وتلقى توجيهاتهم القبول والاستجابة.

وقد نهض الشيخ العربي التبسي بواجبه في هذا الإطار على المستوى المحلي في تبسة حين بدأ فيها عمله الإصلاحي، ثم في قسنطينة والعاصمة، فقد لاحظ أن الاستدمار الفرنسي كان دائبا على بث الفرقة والشقاق بين الجزائريين من خلال إذكاء نيران العصبية الجاهلية وإثارة النعرات الجهوية حتى يمكن لوجوده وينشغل الناس بخصوماتهم عن عدوانه وألاعيبه. لذلك حرص في مواعظه ودروسه على إقناع "العامة بأن سبب النهوض والتقدم والنجاة من ويلات الاستعمار وذله الذليل؛ هو الرجوع إلى الله باتباع دينه، وبالتحابب في الله، وغسل القلوب من العصبية الجاهلية

---

[1] . الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد ناصر، ص: 72.

والأنانية والحسد والحقد، هذه الأمراض التي يبثها المستعمرون وأذنابهم بكل وسائلهم في الأمة الإسلامية والجزائر ليمزقوها. وأن هذا التحابب والاتحاد واجب في الدين"[1].

يقول رحمه الله في إحدى مقالاته: "أول بناء يجب علينا أن نضع أساسه هو ما يسمى بلسان الدين التعاون على البر والتقوى، وهذا التعاون من لوازمه: توحيد الجهود وتوحيد السبل الموصلة إلى إقالة الأمة من عثرتها، وإن عصرنا هذا خابت فيه الفوضى وفاز فيه النظام وصارت الحياة إنما تكتب للمبادئ والأعمال التي حف بها النظام.. وبما أن الفئة المتعلمة تريد أن تخدم هذا الدين وتعيد إلى اللغة العربية ثوبها الجديد وإلى الجمهور الإسلامي الأخلاق الإسلامية، فعليها أن تتمسك قبل كل عمل بمبدأ الجماعات، وأن تُكَوِّنَ بينهم مبدأ الوحدة والاتحاد والشعور بأن عملهم عمل الفئات لا عمل الأفراد، وأن الذرائع التي تتخذ لخدمة الأمة يجب أن تكون من وسائل الجماعات أيضا"[2].

أما الشيخ إبراهيم اطفيش فقد بذل ما أمكنه هو الآخر من جهد في لَمِّ شَمْلِ المسلمين وتحقيق وحدتهم، فقد وقف في وجه محاولات الاستدمار الفرنسي التي رمت إلى إذكاء نار الصراعات الطائفية والعنصرية بين فئات الشعب الجزائري من خلال استغلال الفروق المذهبية لتشتيت شمل الوحدة الوطنية الإسلامية تطبيقا لسياسة (فرق تسد)، من ذلك ما كتبه في التعليق على فتنة الأذان بين الإباضية والمالكية سنة 1931م: "*إن برنامج الاستعمار بشمال إفريقيا اليوم يرمي إلى التنصير* بأي وجه كان، فكان من الدواعي أن يحدثوا اتساع الهوة بين البربر والعرب"[3]. كما عمل في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية على المستوى الدولي، حيث كان لنشاطه الدائب وعلاقاته الواسعة مع العلماء والسياسيين العرب والمسلمين، ورحلاته التي قادته إلى عدة أقطار عربية وإسلامية، دور كبير في تمتين روابط الوحدة والأخوة بين المسلمين. ومن ذلك مشاركته في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد

---

(1) . أعلام الإصلاح في الجزائر، محمد علي دبوز، ج: 2، ص: 39.

(2) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص70.

(3) . الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد ناصر، ص 68.

بالقدس سنة 1931م، أين لعب دورا هاما لتقريب الشقة بين ممثلي المذاهب الإسلامية والدعوة إلى توحيد صف العمل ضد العدو الصليبي المشترك[1].

8- بعث الأمل في نفوس أفراد الأمة في مواجهة حالات اليأس والإحباط:

فقد حرص كل من الشيخين على العمل والنشاط والجد والاجتهاد في خدمة الأمة والعمل على إصلاحها وانتشالها من الحال التي كانت فيها. وكان نشاطهما واجتهادهما وحركتهما الدائبة وعملهما المتواصل، مبعث أمل للأمة في مستقبل مشرق، لأن العلماء هم القدوة والنموذج، فكلما كانوا مجدين مجتهدين عاملين كلما تشجع غيرهم للنشاط والعمل، بينما عندما ينكفئ العلماء على أنفسهم وينسحبون من ميادين الجهاد والكفاح ويتركون منابر التربية والتعليم والتوجيه ومقاومة الباطل يدب اليأس إلى النفوس وتسري روح الهزيمة في القلوب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)، أو: (فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ)[2]. فالعالم المسلم الصادق لا يتسرب اليأس إلى نفسه ولا يكون سببا في زرع مشاعر الإحباط في قلوب إخوانه المسلمين، وإنما هو من يغالب الظروف وينهض لمواجهة الشدائد بالهمة العالية والعزيمة الماضية.

وهذا ما كان عليه حال الشيخين التبسي واطفيش، فقد كان كل منهما متحليا بالشجاعة والإقدام ومغالبة الظروف ومواجهة الشدائد بنفس قوية وعزم صارم، وما لان أحدهما في مواجهة الظروف القاسية التي عاناها وما وهن أمام التحديات والصعوبات التي واجهها. وقد مثل كل منهما قدوة لشعبه وبني أمته في هذا المجال.

فـ"الإمام الشيخ العربي التبسي رحمه الله لم يكن شخصية عادية يعيش لنفسه وأسرته، وإنما كان رجلا ذا قضية كبرى هي قضية دينه ووطنه وشعبه، وقد كرس لها كل حياته، ولم يمت حتف

---

[1] - نفسه، ص 64.

[2] - صحيح مسلم، كِتَاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَاب النَّهْيِ عَنْ قَوْلِ هَلَكَ النَّاسُ، رقم: 4761.

أنفه وإنما أكرمه الله بالشهادة، مما أضفى على شخصيته خصوصية أخرى، وهذه النهاية العظمى جعلت منه إنسانا نموذجا وظاهرة غير عادية تجعل النظرة إليه في مستوى جهاده ودوره ونهايته"[1].

أما الشيخ اطفيش فقد عُرف عنه "إخلاصه النادر لعمله ما يقرب من أربعين سنة كان فيها مثالا للجد والمثابرة والتفاني، لا يرده عن ذلك تقدمه في السن وضعفه البدني وتكاليفه العائلية الثقيلة"[2].

خاتمة:

وبعد، فإن وجود العلماء في الأمة ضمانٌ لحياتها وبقائها وسلامة دينها وعقيدتها واستمرار ارتباطها بكتاب ربها وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[3]. وفي رواية مسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[4]. فذهاب العلم الذي هو فقه الدين والعمل به يكون بذهاب حملته وهم العلماء، عَنْ قَابُوسَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "أَتَدْرُونَ مَا ذَهَابُ الْعِلْمِ مِنَ الأَرْضِ؟"، قُلْنا: لا. قَالَ: "أَنْ يَذْهَبَ الْعُلَمَاءُ"[5]. وقال الإمام أحمد رحمه الله: "الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام

---

(1) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص29.

(2) . مشايخي كما عرفتهم، محمد صالح ناصر، ص 34.

(3) . رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم: 100.

(4) . صحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم: 2673.

(5) . العلم لزهير بن حرب، حديث رقم: 54.

والشراب، لأن الطعام يُحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاث، والعلم يُحتاج إليه كل وقت"[1]. وقال الحسن البصري رحمه الله: "لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم"[2].

لقد جسد كل من الشيخين العربي بن بلقاسم التبسي وأبي إسحاق إبراهيم اطفيش نموذج العالم المسلم العامل المخلص لدينه وأمته ووطنه، حيث تحلى كل منهما – كما ذكر المترجمون لهما ومعاصروهما الذين عرفوهما عن قرب – بصفات العلماء الراسخين الصادقين، وأدى كل منهما – بقدر استطاعته وعلى حسب الظروف التي أحاطت به – ما عليه من واجبات استشعرها من انتمائه إلى فئة العلماء، وحرصه على القيام لله بالحجة، وخوفه من الوقوع تحت طائلة كتمان العلم والتخلي عن فريضة الجهاد في سبيل الله.

ولا شك أن نجاح العلماء المصلحين في أداء واجباتهم وتوفيقهم من الله عز وجل إلى تحقيق نتائج أعمالهم، إنما كان بما تحلوا به من إخلاص أعمالهم لله وابتغائهم مرضاته سبحانه وتعالى.

يقول الشيخ محمد علي دبوز رحمه الله وهو يتحدث عن الصفة التي تميز بها الشيخ العربي التبسي رحمه الله والتي اشترك فيها مع إخوانه العماء المصلحين في شمال الجزائر وجنوبها: "الصفة البارزة في الشيخ العربي هي ما اتصف به أعلام الإصلاح في الجزائر فأنجحهم الله، هي العمل لله، ومن كان لله كان الله له، وكان الله مع الشيخ العربي فوفقه وأعانه وحفظه، فقام بالأعمال العظمى الكثيرة بالوسائل المادية القليلة الضعيفة، وقطع هو وصحبُه الأبرار أعلام الإصلاح في الشمال والجنوب بالأمة الجزائرية المراحل الطويلة وبلغوا بها الرشد، فثارت واستقلت، وبفضل جهادهم الطويل كانت هذه النتيجة العظمى، يرحمهم الله"[3].

"وإنه من الوفاء لهؤلاء الأئمة أن يعتبر أبناؤنا وشبابنا أن ما عاناه شعبنا من الظلم والحرمان، وانتصاره الخالد على حضارة غنية ومدججة بالسلاح، وهو الأعزل من كل سلاح غير

- مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ج: 2، ص: 440.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، للشيخ جمال الدين القاسمي، ص: 16.
- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص 67-68.

سلاح الإسلام، كل ذلك ينبغي أن ينظر إليه أبناؤنا على أنه بشرى لهم، ووعد صادق من الله سبحانه بتمكينهم من الأرض إن هم كانوا رجالا قضايا، وجنود حق، وكانت لهم همم وعزائم آبائهم الأمجاد: العربي التبسي، وعبد الحميد بن باديس، والإبراهيمي، ومطصفة بن بولعيد، وعبان رمضان، واعميروش وغيرهم"[1].

إن حاجة الأمة المسلمة عامة، وحاجة شعبنا الجزائري خاصة، إلى أمثال هؤلاء الرجال الكبار الذين يتصدون للنهوض بالأمة ويقاومون عوامل انحطاطها، ويضحون بكل ما يملكون في سبيل تخليصها من كل ما يكبلها ويمنع نشاطها وحيويتها، لهي حاجة ماسة وأكيدة، يمليها وضع المسلمين اليوم الذي قد يختلف من حيث الصورة إلا أنه لا يختلف من حيث الجوهر عن وضعهم في المرحلة التي عاش فيها الشيخان التبسي واطفيش.

رحم الله الشيخين وأسكنهما فسيح جناته، وحشرنا بصحبتهما (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) [النساء: 69].

مراجع البحث:

1- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ج2.

2- أعلام الإصلاح في الجزائر، محمد علي دبوز، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م. ج1، الصفحات: 39-84. ج2، الصفحات: 11-71.

3- إمام المجاهدين الشهيد الشيخ العربي التبسي، بشير كاشة الفرحي، دار الآفاق، الجزائر، 2004م.

(1) . مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، ص29.

4- رواد النهضة والتجديد في الجزائر، عبد الكريم بوالصفصاف، دار الهدى، عين مليلة، ط2، 1428هـ/ 2007م، الصفحات: 69-96.

5- الشيخ العربي التبسي، أحمد عيساوي، دار البلاغ، الجزائر، ط1، جزءان.

6- الشيخ العربي التبسي وأصول دعوته الإصلاحية السلفية، محمد حاج عيسى الجزائري، نشر: المؤلف، الجزائر، ط1، 1430هـ/ 2009م.

7- الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، محمد صالح ناصر، جمعية التراث، القرارة، 1991م، طبع: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية.

8- مشايخي كما عرفتهم، محمد صالح ناصر، دار ناصر، الجزائر، ط2، 1434هـ/ 2013م.

9- مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين: ج3: الشيخ العربي التبسي، جمع وإعداد: أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى، عين مليلة، 2011.

10- نماذج للاقتداء، محمد الصالح الصديق، دار هومة، الجزائر، 2013، الصفحات: 127-169.